علاقة اللغة بالتأويل في فهم النص الديني

"القـــرآن نمـــوذجـــا"

أ. دريس نعيمة

المدرسة العليا للأساتذة- قسنطينة -

تقـــديـــم:

إن محاولة فهم أي نص ديني تبدو من أصعب محاولات الفهم و المعرفة و ذلك لعدة عوائق أهمها العائق اللغوي. إن التعامل مع نص ديني ينسب إلى الله تعالى يفترض فهما خاصا ومتعاليا وبالتالي معرفة وإدراكا كبيرين ، يتقدمهما بداهة إمتلاك قدرات لغوية و نحوية عالية ومتمكنة، سواء على مستوى قواعد الصرف و النحـــو أو البلاغـــة أو المعاني اللغوية و الإصطلاحية للفظ .... ومن أكثر الصعوبات تأويل و ترجمة الـــنص الديني بمختلف مضامينه سواء المتعلقة بالعقيدة أو الواجبات الشرعية إلى حدود لغوية و نحوية دون إخلال بصحة النص الأصلي.

إن دور اللغة عند التأويل أكثر من ضروري و ذلك لتبسيط المضمون الديني المعقد و نقله بصورة أمينة دون خروج عن المعنى الأصلي للنص. و في الحقيقية لم ينسج أي نص ديني عند محاولة تفسيره أو فهمه أو استنباط أحكام منه من الوقوع في مزلقـــات خطيرة أحيانا بسبب التأويل المتعسف، من ذلك القرآن الكريم الذي تعرض إلى جملـــة

من التأويلات المتعسفة سواء من طرف علماء الإسلام أنفسهم خاصة المتكلمين منهم، الذين أثاروا جدلا عنيفا حول الآيات المتشابهات والصفات الإلهية ومسألة الجبر و الاختيار... ، أومن قبل غير المسلمين من الملل والمذاهب المختلفة خاصة اليهود و النصارى الذين ترجموا القرآن الكريم و فسروه و أولوه ووقعوا في تحريف و تزييف للحقائق، و قد كان جهلهم باللغة العربية وأسرارها من أهم الأسباب التي أوقعتهم في التحريف و التأويل المتعسف و الأمثلة في ذلك كثيرة .وقبل التعرف على بعضها نحاول بداية التوقف عند مصطلح التأويل.

التأويل لغة :

شكل هذا اللفظ إختلافا بسبب تنوع إستخداماته من جهة و تطور دلالته الإصطلاحية من جهة أخرى عبر حقب زمنية مختلفة .

و التأويل مصدر من باب التفعيل و أصله « أول » من آل يؤول ومادته اللغوية قد وردت على معان هي :

- الإصلاح :يقال آل يؤول أولا إذا أصلحه
- العود والرجوع :يتعدى بـ إلى أو يكون لازما ،آل الرجل عن الشيء ارتد عنه، و يقال أول الحكم إلى أهله أي أرجعه و رده إليهم .
- الختور:آل اللبن يؤول أولا خثر
- العاقبة
- التفسير : التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء

التأويل في القرآن و السنة : تكررت كلمة التأويل في القرآن مرات عديدة و بمعان مختلفة :

قال تعالى " فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم و الآخر ذلك خير و أحسن **تأويلا** " النساء/59 .

قال الطبري و أحسن تأويلا أي جزاءا و ذلك الجزاء هو الذي صار إليه أمر القـــوم .

و نقل إبن تيمية معناها عن السلف : « و أحسن عاقبة و مصيرا » (1)

قال تعالى : " هل ينظرون إلا تأويله ،يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قـــد جاءت رسل ربنا بالحق" الأعراف 53

قال الطبري أي ما يؤول إليه عاقبة أمرهم من ورودهم على عـــذاب الله و صـــليهم جحيمه و أشباه هذا ما وعدهم الله به .

قال تعالى : " هذا فراق بيني و بينك سأنبئك بتأويل ما لم تســـتطع عليـــه صـــبرا " الكهف/ 78 أي بتفسير الأفعال المستغربة و بيانها .

أي لكلمة التأويل رغم ورودها 16 مرة في القرآن الكريم إلا أن معناهـــا دار بـــين مدلولين :

- الأول: العاقبة و المرجع و المصير

- الثاني: التفسير و البيان

كذلك ورد لفظ التأويل في السنة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم : قال " بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما ، فأوحي إلي في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي " و المراد هنا تفسير الرؤيا .

و عموما كلمة التأويل لم يختلف معناها في استعمالات اللغويين و القرآن و السنة عن ما ذكرنا حتى القرن الرابع الهجري .

التأويل إصطلاحا :

وهو معنى ثالث ظهر في إصطلاح المتأخرين يذكره إبن منظور و نقلا عن إبن الأثير و غيره التأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك

ظاهر اللفظ كذلك ورد في تاج العروس « التأويل هو صرف الآية عن معناهـــا إلى معنى تحتمله إذا كان المعنى المحتمل الذي تصرف إليه الآية موافقا للكتاب و السنة » [2]

ومن خلال تعريف المتأخرين نلاحظ ما يلي :

- إتفقوا على أن التأويل نقل اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالفه و مستندهم في تعيين ذلك المخالف للظاهر قد يكون المجاز أو الإشتراك ، و هذا المعنى هو الذي شاع بين المعتزلة و الجهمية .

- إن بعض هؤلاء أطلق هذا المعنى للتأويل على كل صرف للمعنى عـــن ظـــاهره و البعض قيده أي اشترط دليلا في الترجيح ، أي أصبح هناك تأويـــل صـــحيح مقيـــد بشروط و آخر فاسد لا قيد و لا شرط له ، و هنا شكل التأويل مشكلا حقيقيا خاصة فيما يخص تأويل بعض آيات القرآن و الصفات الإلهية.لكن لنا أن نتساءل هل التأويل الفاسد يعود في أصله إلى مصادر عربية إسلامية أم يعود في إلى تأثيرات أجنبية ؟

أصل التأويل الفاسد :وهو المخالف للتأويل الصحيح وتؤكد الدراسات بشأنه انه فكر وافد تسرب إلى الجهمية و المعتزلة ...من مصادر يهودية ونصرانية ، حيث أن هـــذا التأويل كان معروفا وممارسا عند الطائفتين قبل شيوعه على يد جهم بن صفوان :

1-اليهود : يشتهر فيلون الإسكندري (25 ق م –40 م) بمذهب التأويل الرمزي حيث شرح التوراة شرحا رمزيا مؤولا الكثير من النصوص بصرف معناها الظاهر إلى المعنى الذي تحتمله حسب رأيه ،وهذا لم يقتصر على فيلون ، فقد شـــاع في عصـــره التأويل الرمزي المجازي خاصة في الفلسفة اليونانية .

وقد اختار فيلون التوراة و تاريخ بني اسرائيل كهدف لمحاولته التأويلية: من ذلك نفى الصفات الإلهية المذكورة في التوراة ،فالله يمثل (الوجود المطلق) الذي لاحد له و لا صفات ، والله كله كمال برئ من المادة ،غير متصل بالعالم و يشمل العالم و يملؤه ، ولكن بما أن لله لا يمكن أن يتصل بالعـــالم ، فقد خلق أولا الكلمـــــــة logos

ووصفها فيلون بأنها الإبن الأول لله و العالم الإبن الثاني ،الملائكة خلقهم الله من رضاه و الشياطين من غضبه...

وطبعا لا يخفى تأثير هذا التأويل الخطير فيما بعد على المسيحية وتطورها والذي ظهر بصورة واضحة في انجيل يوحنا الذي تؤكد الدراسات تأثر كاتبه بفيلون.و يعلق راسل على تأثيره بقوله:" وبينما ترى فيلون لم يعد له من أثر في اليهودية بعد سقوط أورشليم،ترى الآباء المسيحيين قد وجدوا فيه رجلا عرف كيف يوفق بين الفلسفة اليونانية،وبين الإيمان بالكتاب المقدس العبري"(3)

هكذا نلاحظ أن فيلون شرح التوراة شرحا رمزيا مؤولا الكثير من النصوص بصرف النظر عن معناها إلى معنى تحتمله حسب رأيه ، وهذا لم يقتصر على فيلون لأن في عصره شاع "أسلوب التأويل المجازي وخاصة في الفلسفة اليونانية وقد استعمل التأويل في شرح هوميروس بوجه خاص ،و قد انتقد سينيكا هذه الطريقة التي تجعل من هوميروس رواقيا وأبيقوريا ومشائيا في وقت واحد"(4).

ورغم أن معظم أحبار اليهود كانوا غير راضين عن تأويلات فيلون، إلا أن فكره كان موضع ترحيب من قبل اليهود و تأثر الكثير منهم، والذين أصبحوا ذا مكانة عند المسلمين أمثال موسى بن ميمون الذي أنكر بعث الأجسام و سخر من إيمان المسلمين بالجنة و النار.

1-النصارى :من المحاولات المبكرة نجد **كلمانت** الإسكندري (150-213م) من علماء الإسكندرية النصرانية ، اهتم بالتوفيق بين الفلسفة والدين، كان معجبا بأفلاطون وفيلون .

اورجين (185-254م) عاش في الإسكندرية كان من آباء الكنيسة ثم أعتبر مرتدا بسبب تأويله

وفي الحقيقة الكنيسة كانت تقف بالمرصاد ضد محاولة تأويل النص الديني بما يخالف تأويلها وتفسيرها،إلا أن الجدل استمر بين الطرفين واتهام أحدهما للآخر ،خاصة رجال الكهنوت الذين كفروا وبدعوا تيار الأحرار التأويلي،من هنا نتساءل هل هذا الوضع يرجع إلى النص الديني نفسه لأنه لا يشجع التأويل أو يحرمه أم الأمر غير ذلك؟

في الحقيقة إن المشكل لا يكمن في النص وإنما في طريقة فهمه وشرحه والتي تختلف حسب الفهم والإتجاه ،وهذا ما أكدته مختلف الدراسات التي تمت على الكتاب المقدس بعد أن توفر المناخ لذلك ،منها دراسة سبينوزا والتي رد فيها مسؤولية المآسي الدينية التي وقعت في العالم المسيحي إلى المشتغلين باللاهوت والذين استغلوا النفوذ الذي يتمتعون به لفرض آرائهم حيث يقول: "إننا نرى معظم اللاهوتيين وقد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لإستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة بتأويلها قسرا وبتبرير هذه البدع والأحكام بالسلطة الإلهية"[5]،وهذا القسر الذي مارسه رجال اللاهوت لا يختلف حوله اثنان ،ثم إنه قسر تطاول على قداسة النص الديني رغم ادعاء العكس والتظاهر بالتمسك الشديد بالكتاب.

هكذا توالت الأسماء النصرانية إلى أن وصل الدور إلى يوحنا الدمشقي (674-749م) آخر الفلاسفة الآباء والذي كان يعمل كاتبا لدى الأمويين بالشام .

هاته الفئة من اليهود و النصارى نقلت أراءها في التأويل الفاسد الى البيئة الإسلامية وسببت الكثير من الجدل العقيم بسبب خروجها عن النص وعبثها باللغة ، هذا يبرز أهمية الإستعمال اللغوي والتقيد بالمعاني الأصلية أو الخروج عنها في إثارة الجدل بين مختلف الفرق ،وفي الحقيقة يذكر أرسطو هاته المسألة قائلا :« و الخطأ يقع في المسائل الجدلية من وجهين : أحدهما أن تكون كاذبة، أو يعبر عنها بأسماء غير مستعملة في عرف اللغة ولادالة عند الجمهور على تلك المعاني التي أستعملت فيها ،مثل تسمية الدابة إنسانا ومأأشبه ذلك من الأسماء التي هي بخلاف ما تدل عليه اللغة » .

رأي المتكلمين في التأويل:

انقضى عصر الصحابة والتابعين من السلف و الأئمة على التسليم المطلق لما جاء في الكتاب و السنة عن الذات الإلهية وصفاتها ،و لم يتنازعوا في مسألة من مسائل الصفات والأفعال « بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة النبوية، كلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسموها تأويلا و لم يحرفوها عن مواضعها تبديلا و لم يبدوا لشيء منها إبطالا ، ولا ضربوا لها أمثالا و لم يدفعوا في صدورها وأعجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإجلال والتعظيم »[6] أي أن هذا الجيل لم يعرف الجدل في أمور العقيدة كالذي حدث عند المتكلمين،بل عندما تحدث القرآن عن الله أو استوائه أو قبضه للأرض لم يقصد الرسول إلى نوع من التشبيه كما فعل المشبهة ،كما لم يتخذ من قوله تعالى .:« فأينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله » البقرة115 مذهبا في الحلول أو الإتحاد كما فعل المتصوفة ،بل كان يدرك تماما ما في هذه الآيات من معنى قوة الثقة بالخالق و تأييده لعبده بما يملأ قلبه بالإيمان و اليقين.

لكن هذا الإيمان أخذ يضعف وينقص تدريجيا و بدأت تظهر آراء مخالفة للسلف والشرع وأولها كما تذكر أغلب الدراسات أراء جهم بن صفوان الذي نفى أن تكون لله تعالى أي صفة، وبعث الشكوك في نفوس المسلمين واجتذب إليه أنصارا يؤيدون مذهبه فأكبر أهل الإسلام بدعته ورموه بالضلالة. وظهر أثناء ذلك مذهب المعتزلة بعد المئتين من الهجرة وتلاه الأشاعرة ،لكن قبل ذلك ظهرت فرق الشيعة والخوارج وكلاهما مارس التأويل وأخضع القرآن لمذهبه.

ويشير ابن رشد في "مناهج الأدلة" إلى أن الخوارج هم أول من أول القرآن من الفرق الإسلامية ثم المعتزلة ثم الأشعرية ثم الصوفية ،وإن كان الخوارج أول الفرق فإنهم ليسوا الأخطر على النصوص مقارنة بغيرهم، فالشيعة مثلا كانوا أكثر غلوا وتطرفا.من ذلك ابن سبأ الذي نادى بألوهية علي ابن طالب ثم نادى برجعة محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا تشعبت فرق الشيعة وأخذت تتأول نصوص الدين كما يحلو لها من ذلك

طائفة الكيسانية التي زعمت أن الطاعة في الدين لا تعني أداء الفرائض وإنما هي طاعة الإمام المعصوم، وتدرج أتباع هذه الطائفة حتى أسقطوا التكاليف وأنكروا البعث وقالوا بالحلول والتناسخ[7].

وعموما هذه الفرق مكنت من القول في القرآن بالرأي والهوى، وأفسحت المجال لجذب النصوص الى ميدان الجدل و المناظرة بين مختلف الفرق الإسلامية. لكن الغريب في الأمر أن عملية التأويل لم تقتصر على المسلمين والعرب بل امتدت إلى غير المسلمين من أهل الكتاب والذين راحوا يأولون القرآن رغم جهلهم بأسرار اللغة العربية ،من ذلك احتجاج النصارى بالقرآن على ألوهية عيسى الأمر الذي نتعرض إليه.

تأويل النصارى للقرآن لنصرة مذهبهم :

إن المجادلين المسيحيين لم يتوقفوا عن إثارة الجدل مستخدمين وسائل هجومية ودفاعية متنوعة منها حتى المستمدة من القرآن كاستغلال بعض الآيات التي ذكرت أن المسيح "كلمة وروح الله" والتي خضعت لتأويلات مسيحية لاهوتية بحيث تبدو موافقة لما يعقدونه في المسيح. هذا يعني أن علماء الكلام وغيرهم وجدوا أنفسهم أمام مقولات فلسفية لاهوتية جد معقدة ،ورغم المحاولات لتقصي أراء الخصم بكل أمانة، إلا أنها لم تكن تفلح دائما بسبب الفهم الخاطئ والناتج خاصة عن مشاكل اللغة و ما يتصل بها من ترجمة وتأويل و غرابة المصطلحات اللاهوتية الفلسفية عن الفكر الإسلامي واللغة العربية فقد يستخدم المسيحي مصطلحا بمعنى معين ويناقشه المتكلم المسلم بمعنى آخر غير المقصود،مما انتج أخطاء على مستوى الفهم والتصورات الأمر الذي انعكس على الردود مباشرة ،مثل كلمة الجوهر،الأقنوم،المسيح كلمة الله..

وفي الحقيقة إن هذا الإلتباس في الفهم لا يعزى إلى نقص أو عدم توفر المصطلحات العربية الموافقة لها أي للمعنى الحقيقي، لكن يعود بالدرجة الأولى إلى استعمال المسيحيين أنفسهم لهاته المصطلحات،فهم لم يكونوا متفقين على معاني محددة وهذا

كان من أسباب الجدل المسيحي الإسلامي والتي كان من ضمنها عامل التأويل والمجاز اللغوي، ثم إن هذه المصطلحات فلسفية وليست دينية في أصلها.

وعموما الذين اهتموا بالرد على النصارى وغيرهم انتبهوا إلى المسألة اللغوية وما أثارته من سوء فهم وجدال ،من ذلك ما ذكره إمام الحرمين الجويني في رده على عقائد النصارى بقوله:

"وإن زعموا أنهم قالوا ما قالوه* عن دليل، قسمت عليهم مدارك الأدلة،وهي تنحصر في قضية عقل أو نص كتاب من الرسول ،أو اجماع الأئمة عند مثبتيه، هذه هي القواطع من الأدلة" لينقد كل دليل حصره فالمدعي بالعقل "فإن العقول لا تدل على اثبات اللغات ،وتثبيت الأسماء و تخصيصها بالمسميات ،وأنها تثبت تواضعا واصطلاحا أو توقيفا ولا يتوصل لها بقضية عقلية ."[8] وكلام الجويني هذا يكشف عن خلفية معرفية تتصل بعلوم اللغة وفلسفتها ،خاصة علاقة الدال بالمدلول وهي كما هو معلوم علاقة تعسفية لا علاقة لها بالمنطق أو أحكام العقل.

كذلك يتطرق الجويني إلى قضية الترجمة التي قد يستدل بها النصارى ،فحتى وإن كانوا يعتقدون بأن كلمة (جوهر) العربية تقابل ما في دينهم بل إنه "خروج عن اللغة من غير إذن وارد في الشرع [9]،بعد أن يذكر تفاصيل لغوية تفند مقولتهم من وجوه عدة، فحتى وإن كان المقصود بالجوهر القائم بنفسه فإن هذه العبارة لها دلالتها المختلفة في لسان العرب.

وطبعا القرآن الكريم يذكر الإدعاءات التأويلية للنصارى واليهود من ذلك قوله تعالى :وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله..."التوبة /30

هذا يقودنا للحديث عن بعض التأويلات التي اهتم بها النصارى محتجين بها على صحة عقائدهم في المسيح خاصة وصف الله لعيسى بأنه كلمة الله وروحه وكيف رد المسلمون على هذه التأويلات، واخترنا كنموذج رد شهاب الدين أحمد بن إدريس

المالكي(884 هـ - 1285م) المعروف بالقرافي من خلال مؤلفه (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة).

رد القرافي على احتجاج النصارى بقول القرآن أن عيسى روح الله وكلمته :

عظم القرآن الكريم عيسى وأمه عليهما السلام في أكثر من آية،وقد اتخذ النصارى هذا التعظيم حجة على صحة دينهم والقرافي لا ينكر هذا، ويرى أن النصارى لم يقعوا في هذا الكفر بسبب هذا التعظيم، لكن بسبب أنهم نسبوا لله أمورا لا تليق بالربوبية كالبنوة، اتخاذ الصاحبة،ثم أن الإحتجاج بالقرآن دليل على صحته وهم ينكرونه.

أما فيما يخص موضوع الإحتجاج أنه ورد في القرآن بأن عيسى(كلمة وروح الله) فهذا صحيح لكن ليس كما يعتقده النصارى ويرد قائلا :

"والجواب من وجوه أحدها: أن من المحال أن يكون المراد الروح والكلمة على ما تدعيه النصارى...وثانيها: أن الروح اسم الريح الذي بين الخافقين يقال لها :ريح روح لغتان وكذلك في الجمع رياح وأرواح،واسم لجبريل عليه السلام وهو المسمى بروح القدس، والروح اسم للنفس المقومة للجسم الحيواني، والكلمة اسم للفظة المقيدة من الأصوات،واسم للخبر من الكلام النفساني...وتطلق الكلمة على الحروف الدالة على اللفظة من الأصوات ولهذا يقال: هذه الكلمة خط حسن ومكتوبة بالحبر،و إذا كانت الروح والكلمة لهما معان عديدة، فعلى أيهما يحمل هذا اللفظ وحمل النصراني اللفظ على معتقده تحكم بمجرد الهوى المحض.

وثالثها:وهو الجواب بحسب الإعتقاد.لا بحسب الإلزام أن معنى الروح المذكور في القرآن الكريم في حق عيسى عليه السلام هو الروح الذي بمعنى النفس المقوم لبدن الإنسان ،ومعنى نفخ الله تعالى في عيسى عليه السلام من روحه أنه خلق روحا نفخها فيه .فإن جميع أرواح الناس يصدق أنها روح الله وروح كل حيوان هي روح الله تعالى".(10)

ثم بين أن هذا التعبير "روح الله" من خصائص اللغة العربية في الإضافة، كقولنا شل طرفك ،أي شل طرف الخشبة مثلا ،أما تخصيص عيسى بالقول فهو للتشريف وعلو المنزلة.

هذا فيما يخص مسألة " المسيح روح الله" وهنا نفتح قوسا على مختلف الإحتمالات التي توصلت إليها التفاسير لمعنى الروح في القرآن. إن كلمة الروح وردت بمعان ثلاث :

المعنى الأول:ويعني جبريل عليه السلام وذلك في الآيات ،قال تعالى :

"وأيدناه بروح القدس " البقرة/86

" فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا " مريم/16

" تعرج الملائكة والروح إليه " المعارج /4

"تنزل الملائكة والروح فيها " القدر/4

أما المعنى الثاني كان يقصد بالروح "الوحي بوجه عام أو القرآن بوجه خاص"[11]، وذلك في قوله تعالى:" ينزل الملائكة بالروح من أمره"النحل/3 ،"يلقي الروح من أمره على من يشاء " غافر/14 ،" وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " الشورى/49

أما المعنى الثالث والذي له علاقة بعيسى عليه السلام فقد ورد "بمعنى القوة التي تحدث الحياة في الكائنات"قال تعالى :

"إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي،فقعوا له ساجدين "الحجر/28-29

"والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا" الأنبياء/90

"ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي" الإسراء/85

فهذه الآية والتي تتفق مع السابقة الذكر تبين أن القوة التي تبث الحياة في الكائن تصدر من عند الله وحده، بل إن الله يخبرنا أنه وحده يدرك ماهيتها، و وحده يمد بها الأجسام فتدب فيها الحياة أو يسلبها فتصبح جثة هامدة ، "فالله خلق بشرا من طين ثم أودعه

الروح ،وباللغة القرآنية "نفخ فيه من روحه" أي أودعه القوة التي لا يعرفها ولا يسيطر عليها سواه، فجاء آدم،**و أودع هذه القوة رحم مريم العذراء** التي أحصنت فرجها..ونتيجة لنفخ روح الله في رحم مريم **أي ايداع الله القوة التي تخلق الكائن الحي في رحم السيدة العذراء جاء السيد المسيح** "[12]

وهذا يذكرنا بالإستدلال القرآني التمثيلي:"إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم" آل عمران/58

وكما يذكر القرافي إن الروح أعطيت لكل حيوان أي لكل من يحي بروح،وتخصيص عيسى لعلو المنزلة، ثم "إن نفخ الروح في الأرحام ضروري لكل البشر وإنما ورد النص في حالتي آدم وعيسى لأن الخلق في آدم والحمل في عيسى،جاء بغير الطريق الطبيعي ولكن بالنسبة لله سبحانه وتعالى تستوي كل الطرق"[13]

المهم عبارة (المسيح روح الله) كانت ذريعة عند النصارى لتأليه عيسى ،لكن كيف يعالج القرافي المسألة الثانية (عيسى كلمة الله) ؟ يقول القرافي :

"وأما الكلمة فمعناها أن الله تعالى إذا أراد شيئا أن يقول له :كن فيكون ،فما من موجود إلا وهو منسوب إلى كلمة كن، فلما أوجد الله تعالى عيسى عليه السلام قال له كن في بطن أمك فكان، و تخصيصه بذلك للشرف كما تقدم، فهذا معنى معقول متصور ليس فيه شيء كما يعتقده النصارى من أن صفة من صفات الله حلت في ناسوت المسيح عليه السلام، **وكيف يمكن في العقل أن تفارق صفة الموصوف**، بل لو قيل لأحدنا،إن علمك أو حياتك انتقلت لزيد لأنكر ذلك كل عاقل ،بل الذي يمكن أن يوجد في الغير مثل الصفة ،وأما أنها هي نفسها تتحرك من محل إلى محل فمحال، لأن الحركات من صفات الأجسام،والصفة ليست جسما"[14]

وكما نلاحظ القرافي ناقش المسألة من ناحية أحكام اللغة و المنطق،فالكلمة صفة والصفة لا تفارق الموصوف ،ويختم القرافي في رده على هاته المسألة بأن لجوء النصارى

إلى القرآن وهو مكتوب بالعربية، فيه خلل لأنهم يجهلون خصائص لسان العرب في إضافته وتعريفاته وتخصيصاته .

كذلك يذكر القرافي احتجاج النصارى على بنوة المسيح بالقرآن حيث يقول على لسان خصمه

" قوله: إن القرآن أثبت هذه البنوة بقوله تعالى :"ووالد و ما ولد"،قلت :هذا افتراء على الله تعالى وعلى كتابه وعلى المسلمين ،إنما أقسم الله بآدم وذريته، فليس للنصراني أن يتسلط بالتحريف على كتابنا كما تسلط على كتابه"[15] .ثم يقدم دعوة للنصارى بالرجوع عن قولهم بتجسم النطق الرباني في عيسى ابن مريم وضرورة الإعتراف ببطلان النبوة عليه، وأن النصارى لم يفهموا معنى الإله الواحد فعبدوا ثلاثة آلهة.

خلاصة:

من خلال ما ذكرنا تتبين لنا العلاقة الوطيدة بين اللغة وعلومها المختلفة من جهة ،وبين العلوم الدينية والشرعية من جهة أخرى،فاللغة كانت ومازالت من أسباب الجدل والنزاعات على مختلف الأصعدة ، وأخطرها حسب اعتقادنا الصعيد الديني لأن ما يسببه التأويل الخاطئ والترجمة الفاسدة مثلا من لبس وانحراف عن المعاني الأصلية ليس بالأمر الهين ،وربما هذا يفسر ويبرر الإهتمام البالغ والمتزايد في عصرنا بالدراسات اللغوية من نواحي عدة ،حيث زال الإعتقاد بأن اللغة وسيلة اتصال فحسب،وبدل ذلك ترسخت قناعة بأن اللغة أبعد من ذلك بكثير ،بل إن الأبحاث الحديثة والمعاصرة تكشف وبصورة علمية ودقيقة جدا عن أهمية اللغة البالغة والتي تتصل بمختلف المعارف والعلوم وبكل ما أنتجه العقل البشري،والذي يمكن التأكيد عليه فيما يخص علاقة اللغة بالعلوم الشرعية:

التعامل مع الدراسات الدينية وخاصة مع النص المقدس يتطلب فهما متعاليا يتقدمه امتلاك قدرات لغوية جد متمكنة كما سبق وأن أشرنا.

تجنب –قدر الطاقة البشرية –الوقوع في الأخطاء المتعلقة باللغة ،لأن الخطأ في هـــذه الحالة قد يعني الوقوع في البدعة والكفر.

تجنب الأحكام المسبقة العاطفية منها والمتعصبة وأخطرها المذهبية.

الهوامش:

(1) ابن تيمية :مجموع الفتاوى ،ج 13،ص 291.

(2) تاج العروس، ج 7،ص 214

(3) راسل :تاريخ الفلسفة الغربية،ت زكب نجيب محمود،ط،1968،2، ج 2 ، ص 33..

(4) أميرة حلمي مطر ،الفلسفة عند اليونان، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط2، 1986، ص412.

(5) سبينوزا : رسالة في اللاهوت و السياسة ، ترجمة حسن حنفي ، دار الطليعة بيروت ، ط2، 1981 ،ص 241

* ابن رشد:تلخيص كتاب ارسطو طاليس في الجدل :تحقيق محمد سليم سالم،الهيئة المصرية العامة،1980،ص 89.

(6) ابن القيم الجوزية :اعلام الموقعين عن رب العالمين ،ص 1.

(7) انظر الخطط للمقريزي ، ص 356.

* تسمية الله جوهرا

(8) الجويني :الشامل في أصول الدين،تحقيق و تقديم علي سامي النشار،فيصل بدير عون ،سهير محمد مختار، الناشر منشأة المعارف بالأسكندرية ،1969،ص 572.

(9) المصدر نفسه،ص 573

(10) القرافي: الأجوبة الفاخرة ، دار الكتب العلمية،لبنان، ط1 ،1986،ص 5.

(11) أحمد شلبي: مقارنة الأديان المسيحية ، ج2 ، مكتبة النهضة المصرية، ط8 ،1984، ص44

(12) المرجع نفسه ، ص 44–45.

(13) المرجع نفسه ، ص 45–46.

(14) الأجوبة الفاخرة ، ص 15.

(15) المصدر نفسه ، ص38.